

من الفنون النثرية في العصر العباسي

كان النثر الفني في أوائل العصر العباسي مزيجاً من عدة ثقافات متباينة ، وألوان فكرية مختلفة ، وكان قوامه العلوم والمعارف والثقافات الفارسية والهندية واليونانية .

وقد استطاع النثر العربي بما يتحلى به من مرونة أن يحتوي كل هذه المعارف والعلوم ، ونتج من ذلك أن تعددت شعبه وفروعه العلمية والفلسفية والتاريخية والأدبية والاجتماعية ، فوجدنا كتب التفسير وكتب الأحاديث وكتب الفلسفة والتاريخ والطب ، والصيدلة والهندسة إلى غير ذلك من العلوم والمعارف التي أنشأها العرب أو ترجمت من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية وعلى الرغم من ذلك فقد ظل النثر العربي محتفظاً بمقوماته الفنية وطابعه العربي الذي يتميز به.

هذا بالإضافة إلى الأنواع الأدبية التي ظهرت في العصر العباسي مثل:

✍ **فن الخطابة** التي كان لها دوافعها السياسية في أوائل العصر العباسي، حيث أنبروا يدافعون عن حقهم فيما تولوه من خلافة ، وأنهم أولى بها من غيرهم لقربتهم من آل البيت .

كما كانت هناك الخطب المناوئة للعباسيين وبخاصة من العلويين الذين استقر في أذهانهم أنهم أولى بالخلافة من بني العباس وأنهم استولوا عليها دون وجه حق ، فكل هذه المعاني صيغت في فن الخطابة وكان كل فريق يتبارى في الدفاع عن موقفه من خلال مخاطبة الناس وحسن الإلقاء .

كما كانت هناك الخطابة الدينية التي نالت قدراً من الازدهار والتقدم في العصر العباسي ، وبخاصة في بيئة الوعاظ والنسك وأهل الدين، وكانت خطبهم تعتمد على الدقة في اختيار الألفاظ المعبرة ، وصياغتها وسبكها في عبارات فصيحة تدل على إحساس مرهف وذوق رفيع .

هذا بالإضافة إلى المحاورات والمناظرات التي كان يجريها المتكلمون من المعتزلة وغيرهم والتي كان لها أثر بارز في تطور النثر العربي ووضع أصول علم البلاغة العربية .

ومن الفنون النثرية التي ظهرت في العصر العباسي ، وزاد نشاطها وازدهرت ازدهاراً واضحاً الرسائل الديوانية ، فقد كان لها دوافعها التي أدت إلى ازدهارها ومن أهم تلك الدوافع أنه من كان يُظهر براعة ومهارة في دواوين الخلافة تقبل عليه الدنيا والمنح والعطايا ، ويرقي إلى رئيس الديوان الذي يعمل فيه وقد يصبح رئيساً لمجموعة من الدواوين ، أو وزيراً للخليفة .

كما كان يشترط فيمن يتولى الكتابة : إحسان صناعة الكتابة بمعرفة مادتها اللغوية والأسلوبية المطلوبة ، وأن يكون على قدرة بلاغية تمكنه من الكتابة الرائعة وأن يكون على دراية بالمعارف والعلوم كعلم الفقه واللسان والحساب والطب والنجوم والكيمياء وعلوم الكلام من فلسفة ومنطق وسائر أنواع المعارف كي يرقى إلى الدرجات العليا والمناصب المرموقة .

وقد ظلت أساليب الرسائل مزدهرة في العصر العباسي ، رغبة من أربابها في الحياة الرغدة ، القائمة على العطايا الفائضة ، وكان من أبلغ الكتاب في

العصر العباسي وبخاصة الأول منه : طاهر بن الحسين قائد جيوش المأمون ضد أخيه الأمين^(١).

ومن الفنون النثرية التي تنافس فيها الأدباء والشعراء والكتاب ، الرسائل الأخوانية والأدبية ، إذ كان لكل خليفة أو وزير أو وال كاتب هولسان حاله إن لم يكن هو الكاتب نفسه ، وذلك لما أخذوا به أنفسهم من ضروب الثقافة وسعة الإدراك والإحاطة .

هذا وقد دارت في كتب الأدب خلال العصر العباسي رسائل إخوانية وأدبية دجها كتاب الدواوين والشعراء والأدباء ، وكانت موضوعاتها تدور في محيط الاعتذار الشخصي ، أو سؤال الود ومواصلة المحبة ، ومنها ما كتب في مجال وصف الكتاب والقلم ، ومنها ما كتب في وصف الجئة والنار وهذه من قبيل الرسائل الأدبية مثل رسالة الغفران لأبي العلاء المعري .

لكن لا يفوتنا أن أساليب النثر في هذا العصر قد غلب عليها السجع حتى أصبح أبرز سماته آنذاك ، بالإضافة إلى البديع كالطباق والجناس والمشكلة ، مع الالتزام بالصور والأخيلة والتشبيهات التي توافقت روح العصر وذوقه .

١ - أنظر جزء من رسالة إلى ابنه عبد الله في تاريخ الطبري ج١٦٠/٧ وما بعدها .

من رسالة الغفران لأبي العلاء المعري

ترجمة أبي العلاء : ، أصله ومولده :

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري وكنيته أبو العلاء ، واسم بلده معرة النعمان ، وهي قرية صغيرة في شمال سوريا بين حلب وحمص .
وقد ولد يوم الجمعة الثامن والعشرون من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة هجرية . وهي توافق سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ميلادية .

نشأته وثقافته :

في السنة الرابعة من عمره (٣٦٧ هـ) أصيب المعري بالجذري ، فكاد يودي بحياته ، ولم يغادره حتى ذهب بعينه وأصيب بالعمى ، وبهذه الحادثة تمت أول نكبه أعداه له القدر ، فكان لها في حياته أكبر الأثر ، ثم ذهب وهو على هذا الحال إلى الدراسة في " حلب " بعد أن أتم الدراسة على أبيه ، وكانت حلب آنذاك مكتظة برجال العلم والأدب ، الذين ملأوا حلب علماءً وأدباءً ، فانتفع بعلمهم أبو العلاء ، ثم سافر إلى أنطاكية وفيها اطلع على نفائس الكتب التي وجدها في مكتبتها الشهيرة ، وكان بها كثير من الروم الذين شاهد أبو العلاء صولتهم واعتزازهم بها .

ثم سافر إلى طرابلس الشام ، ومر باللاذقية ونزل بدير فيها ، وأخذ عن راهب كثيراً من أرائه في الفلسفة وغيرها ، وقويت الصلة بينه وبين النصراني واليهود ، وتمكن من دراسة دينهم ومناقشتهم فيه ، ثم عاد إلى بلده ومسقط رأسه معرة النعمان ، ومات أبوه وهو في الرابعة عشرة من عمره سنة ٣٧٧ هـ فرثاه بنونيته المعروفة في سقط الزند ، وهي تمثل شعره في تلك الفترة .

وقد ظل في بلدته حتى سنة ٣٩٨ ، ثم رحل إلى بغداد وهناك ذاع صيته بعد أن أطلع على العلوم والمعارف التي كانت تذخر بها بغداد آنذاك ، واشترك في الجامع العلمية والأدبية العامة والخاصة ، ثم تحولت به الأقدار والأحوال فغادر بغداد وقد مرضت أمه وأصبح فقيراً ، على الرغم من أنه كان شاعراً وكان يمكنه أن يتكسب بشعره مثل كثير من الشعراء في عصره ، لكن أنفته منعتة أن يتكسب بشعره وأدبه ، وقد حزن أهل بغداد على رحيله عنهم ، وكان ذلك سنة ٤٠٠هـ . وهو في طريقه إلى المعرة إذ وافاه نعي أمه ، فتمت نغمته على الدنيا .

وكانت هذه الصدمات التي تلقاها في حياته ، سبباً في اعتزاله عن الناس ، لكن الناس لم يتركوه لعزله ، فالتف حوله الطلاب وأقبل عليه الكثير من المعجبين والمريدين له ليتلقوا العلم على يديه ، وكان له وقف يحصل منه كل عام على ثلاثين ديناراً يعطي خادمه نصفها وينفق على نفسه النصف الآخر ، فكان فقيراً زاهداً لم يتكسب بأدبه وعلمه .

وبعد ذلك يقتضينا المقام أن نذكر أنه أول من خط للشعر العربي طريقاً جدية فلسفية خاصة به وملاً شعره بأسمى المبادئ الاجتماعية والأدبية والعالية التي انفرد بها - دون سواه - من بين شعراء العربية .

يقول عنه الدكتور طه حسين : " فأبو العلاء فذ في الأدب العربي كله ، وصل من حقائق الأشياء إلى ما لم يصل إليه أديب عربي قبله أو بعده " .

بل إنه يعده أحد الرواد العالميين القلائل فيقول : " فأبو العلاء فذ يعد من هذه القلة الضئيلة التي يمتاز بها الأدب العالمي الرفيع على اختلاف العصور وتباين أجيال الناس وتفاوت ظروف هذه الأجيال من الحضارة ورقى الشعوب . فإذا فخر الأدب اليوناني القديم بأبيقور ، وإذا فخر الأدب اللاتيني القديم

بلوكريس ، وإذا فخرت الحضارة الأوربية الحديثة بأدبائها وفلاسفتها المتشائمين ، فمن حق الأدب العربي أن يفخر بأبي العلاء .

ثم يتناول صفاته العلمية فيقول : " فقد كان أبو العلاء فيلسوفاً عميق الفسفة صادق النظر في أمور الحياة والأحياء ، وكان أبو العلاء شاعراً رفيع الشعر نقيه خلابه يبلغ به من الروعة الهائلة في كثير من الأحيان ما لم يبلغه الفحول من شعراء العربية في قديمها وحديثها ، وكان أبو العلاء أديباً ، وعي من الأدب ما لا نعرف أن أحداً من أدباء العرب وعي مثله . وكان أبو العلاء صاحب خيال نفاذ ، يصعد إلى أرقى ما يستطيع الخيال أن يبلغ وينفذ إلى أعماق ما يستطيع الخيال أن ينفذ إليه (١)

وقبل شهادة طه حسين هذه ، فقد بلغ أبو العلاء منزلة رفيعة بين مريديه آنذاك وإمارة ذلك أن وقف على قبره نيف وثمانون شاعراً يرثونه بُعيد وفاته ، فكان بلاغ قولهم مطلع قصيدة لأحدهم - أبي الفتح الحسن بن عبد الله بن حصينة - حيث يقول :

العلم بعد أبي العلاء مضيع

والأرض خالية الجوانب بلقع

هذا مثل من أمثلة الإعجاب الذي اتفق عليه أولئك الشعراء ، وكانوا فيه ترجماناً لمئات أو ألوف المعجبين ، لم ينظموا الرثاء ، ولم يقفوا على ثراه . (٢)

وكانت وفاته يوم العاشر من ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمائة هجرية ، عن عمر نيف على الثمانين عاماً .

١- صوت ابي العلاء ص٦ ، ٧ دار المعارف .

٢- أنظر رجعه أبو العلاء - ص ٤ ، عباس محمود العقاد .

آثاره :

كان لأبي العلاء مؤلفات عديدة ، لكن أكثرها قد فقد لسوء الحظ ، ولم يبق للمكتبة العربية منها إلا ديوان سقط الزند ويحتوي شعره في عهد الشباب - وليس فيه إلا بضعة قصائد بلغت الذروة في الإجابة ، أما الباقي فأكثره ، متكلف أفسدته المبالغات والتقليد ، وقد اعترف بذلك في مقدمته لهذا الكتاب .

ومن آثاره كذلك كتاب اللزوميات ، ويعد من أنفس الدواوين العربية ويحتوي على منهجه الفلسفي في الشعر على الرغم من هذا القيد الذي أخذ به نفسه وهو مضاعفة القافية ، وله كذلك ديوان الدرعيات ، واعتني فيه بوصف الدروع وله رسائله التي طبعها مرجليوث ، ورسالتا الغفران والملائكة ، وكتاب الأيك والغصون وقد بلغت أجزاءه أكثر من مائة جزء وعلى الرغم من ذلك فقد فُقد كله .

هذا وقد كان أبو العلاء محباً للأدب (شعره ونثره) وكان له في كل منهما بعض المأثور . ومن أشعاره في فلسفته عن الموت يقول :

يـمـوت قـوم وراـء قـوم

ويثبـت الأول العـزيمـز

كـم هـلـكـت غـادـة وكـعـاب

وعـمـرت أمـهـا العـجـوز

أحـرزها الـولـدان خـوفـاً

والقـبـر حـرز لها حـريـز

يـجـوز أن تـبـطـيء المـنـايـا

والخـلد في الـدهـر لا يـجـوز

ومن أشعاره كذلك :

أولو الفضل في أوطائها غرباء
تشذ وتتأى عنهم القرباء
فما سبئوا الراح الكميت للذة
ولا كان منهم للخراد سباء
وحسب الفتى من ذلة العيش أنه
يروح بأدنى القوت وهو حباء

التعريف برسالة الغفران :

رسالة الغفران هي عمل أدبي رائع غاية في الدقة والإبداع والخيال السامق، كما أنها آية في البلاغة والفصاحة اللفظية، وآية للتفكير العربي، وآية الخيال العربي، وآية السخرية العربية.

وهي في مضمونها، تصور مقابلة الشاعر لبعض الأشخاص في العالم الآخر ممن نعموا بالغفران أو حرموا منه - في تصوره وخياله - وفيها يناقش كل واحد منهم فيسأل أصحاب الفريق الناجي " بم غفرلك "؟ فيجيب كل واحد منهم بما نجاه من العذاب، ويشرح له السبب في دخوله الفردوس، ويصف له كيف يتمتع به، كما يسأل بعض أفراد الفريق الثاني ممن حقت عليهم اللعنة وكتب عليهم الشقاء في تصوره " لم لم يغفرلك قولك كذا؟ فيجيبه أكثرهم عن السبب، ويشرحون له ما يقاسون من ألم وعذاب، ويصمت بعضهم لانشغالهم بما هم فيه من نكال وغصص.

وهذا معناه أن الرسالة تقوم على الحوارات التي تجري في عالم الآخرة ، كما يتمثلها ويصدرها خيال الشاعر أو الأديب ، ومما دفعه إلى كتابة هذا العمل أنها جاءت رداً على رسالة ابن القارح ، وهو على ابن منصور " الملقب بدوخلة ، والمشهور بابن القارح وكان قد أرسلها إلى أبي العلاء طالباً الرد عليها ، وهذا ما دفعه إلى هذا الإبداع الأدبي لذا فقد أثنى أبو العلاء على رسالة ابن القارح وأطرى كلماتها لكي يتوصل إلى غايته التي رمى إليها من إبداع رسالته ، فقد تمثل أبو العلاء الملائكة ترفع كلمات رسالة ابن القارح إلى السماء متخذاً من قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١١﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ... ﴾^(١)

وسيلة إلى تمثل الأشجار وقد غرست في جنة الفردوس ، بعدد كلمات رسالة ابن القارح لأنها جميعها مما ينطبق عليه معنى الآية الكريمة .

وقد استدعى ذكر أشجار الجنة ذكر أنهارها وما فيها من خمر ، وتنزه ابن القارح فيها وتمتعه بنعيمها وتعرفه بأهلها ، ثم جره ذلك إلى وصف دخوله الجنة مع من غفر لهم وعلى الوجه المقابل ذكر أهل النار وزيارته لهم وسؤالهم عما جرهم إلى هذا المصير المؤلم ، وهكذا تسير الرسالة في هذا المضمون .

وفي تعريفها ووصفها يقول الكاتب محمد فريد وجدي : " إن أجمل ما كتبه - أي أبو العلاء - وأجمعه لآرائه في الدين والعلم والأخلاق وفي أساليب الشعر وفنونه ، ورجاله وعيونه ، آيته الموسومة برسالة الغفران ، فقد صورت من نفسه ما لم يصوره شعره للدهماء ففي الشعر حوائل من الأوزان والقوافي ، لكن النثر - لخلوه من هذه الحوائل - تتجلى فيه روح صاحبه بأحلى مظاهرها ... "

١- سورة إبراهيم : من الآية ٢٤ ، ٢٥ .

" من رسالة الغفران "

يقول أبو العلاء (المعري) في وصف رسالة ابن القارح :

وصلت الرسالة ^(١) التي بحرها بالحكم مسجور ^(٢) ومن قرأها لاشك
مأجور ^(٣) إذ كانت تأمر بتقبل الشرع ^(٤) وتعيب من ترك أصلاً إلى فرع ، وغرقت
في أمواج بدعها الزخرة ، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة ، ومثلها من شفع
ونفع وقرب عند الله ، وفي قدرة ربنا - جلّت عظمته - أن يجعل كل حرف منها
شبح نور لا يمتزج بمقال الزور ، ولعله - سبحانه - قد نصب لسطورها المنجية من
الذهب ، معاريج ^(٥) من الفضة أو الذهب ، تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة
إلى السماء بدليل الآية :

﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...﴾ ^(٦)

وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٦٤﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا..﴾ ^(٧)
وفي تلك السطور كلم كثير ، كله عند الباريء - تقدّس - أثير. ^(٨)

١- يعني رسالة ابن القارح .

٢- مملوء .

٣- مثاب .

٤- التزامه أو العمل على إتباعه والتمسك به .

٥- جمع معراج وهو السلم أو المصعد (بكسر الميم وفتحها) .

٦- سورة فاطر : من الآية ١٠ .

٧- سورة إبراهيم: من الآية ٢٤ ، ٢٥ .

٨- مأثور : محبوب .

ويقول في وصف الفروس :

وقد عرس لمولاي الشيخ الجليل إن شاء الله - بذلك الثناء - شجر في الجنة
لذيذ إجتناء ، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظل غاط (١)
والولدان المخلدون في ضلال تلك الشجرة قيام وعود ، يقولون - والله القادر على
كل شيء عزيز " نحن وهذه الشجرة صلة من الله لعلي ابن منصور (٢) فخبأ له إلى
نفخ الصور وتجري في أصول ذلك الشجرة أنهار تختلج (٣) من ماء الحيوان (٤)
والكوثر يدها في كل أوان ، من شرب منها النغبة (٥) فلا موت ، قد أمن هنالك
الفوت (٦) وسعد من اللبن متخرفات لا تغير بأن تطول الأوقات ، وجعافر (٧) من
الرحيق (٨) المختوم كما قال علقمة (٩) :

تشفي الصداع ولا يؤذيه صاليها

ولا يخالط منها الرأس تدويم (١٠)

ويعمد إليها المغترف بكؤوس من العسجد (١١) وأباريق خلقت من الزبرجد ،

لوراها أبو زيد (١٢) لعلم أنه ما تشيب بخير ، وهزيء بقوله :

١- ظليل .

٢- هو ابن القارح .

٣- تنتزع ، تحرك ، تطير .

٤- الحياة .

٥- النغبة : الجرعة .

٦- الضياع

٧- أنهار كبيرة .

٨- أطيب وأفضل أنواع الخمر .

٩- علقمة الفحل توفي سنة ٥٦١ شاعر جاهلي عمر طويلاً اسمه علقمة ، وكنيته ابن عبده ، ولقبه الفحل ، وموطنه

نجد ، وعشيرته تميم - وهو من ساداتها .

١٠- لا يخامر . تدويم : الدوار يعقب السكر .

١١- الذهب .

١٢- أبو زيد لعله يعني أبا زيد الأنصاري المتوفي سنة ٢١٥هـ الثقة في النحو واللغة ، وأمام كثير من علماء البصرة ،

ومؤلف كتاب النوادر في اللغة المطبوع في بيروت سنة ١٨٩٤ ، وكتاب القوس والترس ، وكتاب (الإبل) وكتاب

(خلق الإنسان) وكتاب (المطر) وكتاب (المياه) وكتاب (بيوتات العرب) وكتب أخرى .

وأباريق ، مثل أعناق طير الـ

ماء قد جيب فوقهن خنيف^(١)

ولو نظر إليها علقمة لبرق^(٢) وفرق^(٣) وعلم أنه قد طرق^(٤) ، ما ابن عبدة^(٥)

وما فريقه ؟ قد خسر ، وكسر إبريقه . نظرة إلى تلك الأباريق خير من نبت الكرمة العاجلية ومن كل ريق ضمنته هذه الدار الخادعة .

ولو بصر بها عدي بن زيد^(٦) لشغل عن المدام والصيد واعتراف بأن أباريق

مدامه أمرهين لا يعدل بنا بت من حمصيص^(٧) أو ما حقر من خر بصيص^(٨) فأما الأقيشير السعدي^(٩) فإنه قال - ولعله - سيندم :-

أفنى تلامي وما جمعت من نشب

قرع القوازيز أفواه الأباريق^(١٠)

ما هو وما شرابه ؟ تقضت في الخائنة آرا به ! لوعاين تلك الأباريق لأيقن

أنه فتن بالغرور وسر بغير موجب للسرور ، وكم على تلك الأنهار من آنية زبرجد وياقوت بين أصفر وأحمر وأزرق يخال أن لمس أحرق ، كما قال الصنبوري :

١- جيب : شق أوقد ، خنيف : ثوب غليظ أبيض من الكتان.

٢- برق : تحير . وهش .

٣- فرق : اشتد فزعه .

٤- طرق : ضعف عقله .

٥- كنيته علقمة الفحل .

٦- عدي بن زيد العبادي شاعر جاهلي نصراني . قبيلته تميم ، وموطنه الحيرة دخل الأرياف فتقل لسانه .

٧- بقلة رملية حامضة .

٨- نبات له حب يتخذ منه طعام والغرض هنا التحقير .

٩- الأقيشير كنيته أبو معرض . موطنه الكوفة ، كان أمر الوجه فسمي الأقيشير ، وكان خليعاً ماجناً سكيراً ، وهجاء مقتناً . يعضب إذا قيل له " يا أقيشير " .

١٠- تلامي : قديمي ، نشب : مال ، القوازيز : جمع قازوزه وهي قدح الشرب - والمعنى أذهب ثروتني قديمها وحديثها - إدماني معاقر الخمر .

تخيليه ساطعاً وهجته

فتأبي الدنو إلى وهجه

وفي تلك الأنهار أوان على هيئة الطير السابحة ^(١) والغانية عن السائحة ^(٢)

فمنها ما هو على صور الكراكي وآخر تشاكل المكاكي ، وعلى خلق طواويس وبيط ، فبعض في الجارية وبعض في الشط ، ينبع من أفواها شراب كأنه من الرقة السراب ، لو جرع منه جرعة الحكمي ^(٣) يحكم بأنه الفوز ، وشهد له كل وصاف للخمر - من محدث وعتيق أن أصناف الأشربة المنسوبة إلى الدار الفانية كخمر عانه وأذرعاع وغزوببيت رأس ، وجلب من بصرى وما اعتصر بصرخة أو أرض شام . ويعارض تلك المدامة أنهار من عسل مصفى ما كسبته ، النحل الغادية إلى الأنوار ، ولا هو في موم ^(٤) متوار . ولكن قال له العزيز القادر " كن فكان واهماً لذلك عسلاً لو جعله الشارب المحرور غداءه طول الأبد ما قدر له عارض موم ^(٥) ولا لبس ثوب المحموم وذلك كله بدليل الآية :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّرِيبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ^(٦)

١- المائية .

٢- البرية .

٣- الحكمي : هو الحسن بن هانيء الحكمي ويكنى أبا نواس ١٤٥-١٩٩ هـ ولد بالأهواز ونشأ بالبصرة ثم انتقل إلى بغداد وهو في الثلاثين من عمره وهناك طار صيته ، واتصل بالرشيد ثم بابنه المأمون .

٤- موم : شمع .

٥- موم مرض شديد الوطأة .

٦- سورة محمد : من الآية ١٥ .

ولو خالط من ^(١) عسل الجنان وما خلقه الله سبحانه في هذه الدار
الخادعة كالصاب والمقز ^(٢) لعدم اللذائذ المرتقيات .

فأما الأنهار الخمرية فتلعب فيها أسماك هي على صور السمك بحرية
ونهرية ، فإذا أمد المؤمن يده إلى واحدة من ذلك السمك شرب من فيها عذباً
لوقعت الجرعة منه في البحر - الذي لا يستطيع ماءه الشارب لحتت منه أسافل
وغوارب ^(٣)

١- المن كل ظل ينزل من السماء على شجر أو حجر ويطلو وينعقد عسلاً ويجف جفاف الصمغ ، والمن كيل أو ميزان
يبلغ رطلين وقيل المن شرعا مائة وثمانون مثقالاً ، وعرفا مانتان وثمانون أو المقصود مكيال صغير .
٢- المقز : المر .
٣- المغارب هو الكاهل أو ما بن السنام إلى العنق والمقصود به هنا سطح البحر .

تحليل وتعليق

تناول أبو العلاء في رسالته موضوعاً مهماً في حياة البشرية وبخاصة المؤمنين الذين يأملون من الله المغفرة والرضوان ، يوم القيامة ، والفوز بجنات الفردوس بما فيها من نعيم مقيم لا يقطع ولا يمنح .
وقد عالج أبو العلاء هذه القضية علاجاً ينم عن اقتداره ويشهد على اتساع ثقافته واتقاد ذهنه ، ونبوغه الفطري السليم ، ويكشف عن مدى تعلقه بالدار الآخرة وعزوفه عن الدنيا وبغضه لها .

والحق أنه بدأ رسالته بوصف رسالة ابن القارح التي كانت باعثاً حقيقياً له في كتابة هذه الرسالة الموسومة " برسالة الغفران " فبين أنها أي رسالة إبن القارح مملوءة بالدرر واللالأ ، إذ إنها تأمر بالإقبال على الشرع والتمسك بأدابه وتعاليمه السمحة كما أنها تعيب الذين يناؤن بأنفسهم عن نور الهداية والحق ، ومن منطلق قول الله تعالى :

﴿...إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...﴾^(١)

وقوله جلّت قدرته :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا...﴾^(٢)

من منطلق هذا القول الكريم ، تخيل الكاتب أن هذه الرسالة بما تشتمل عليه من معان قيمة وحكم بالغة ، قد رفعتها الملائكة على سلم من ذهب وفضة لتستقر عند الله جلّت عظمته .

١- سورة فاطر: من الآية ١٠ .

٢- سورة إبراهيم : من الآية ٢٤ ، ٢٥ .

ثم انتقل الكاتب إلى ما يرغب به نفس المؤمن ، ويحفزه إلى عمل الصالحات والاجتهاد في طاعة ربه ، لينال الدرجات العلا وجنات الفردوس التي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فوصف الفردوس وما فيها متخذاً من القرآن والسنة دليلاً على صدق ما يقول ففي الفردوس أنهار الخمر وأنهار اللبن ، وأنهار العسل المصفي وأنهار تجري فيها مياه رائقة عذبة من شرب منها جرعة يأمن من الضياع والموت .

ويتطرق الكاتب إلى وصف أواني الجنة من الكؤوس الذهبية والأباريق الفضية والزبرجدية وهي أواني لا تضاهيها أواني الدنيا ولو كانت على قدر من الأبهة والعظمة .

وقد استعان الكاتب على إيراد هذه الأوصاف بعدة طرق فنية منها :

☞ أنه أعتمد في إيراد هذه الأوصاف على ثقافته الإسلامية التي استقاها من القرآن الكريم والسنة النبوية ، مما يدل على أن الكاتب كان ذا ثقافة إسلامية ملمة بالقرآن والسنة فيما يتعلق بوصف الجنة ونعيمها. ومظهر ذلك الآيات القرآنية التي أوردتها في ثنايا الرسالة مثل قوله تعالى في وصف الكلام الطيب والعمل الصالح وجزائه :

﴿...إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...﴾^(١)

وفي وصف الجنة وما فيها من نعيم للمتقين يورد الكاتب .

١- سورة فاطر : من الآية ١٠.

قول الله تعالى :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهْرٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهْرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنهْرٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنهْرٌ مِّن عَسَلٍ مُصَفًّى وَهَمٌّ فِيهَا مِّن كُلِّ الثَّمَرَاتِ... ﴾^(١)

هذا بالإضافة إلى الألفاظ الموحية المعبرة عما يتحدث عنه في وصف الجنة وأهلها مثل : الكوثر، الرحيق المختوم - كوؤس طير، أباريق - آنية - ياقوت - خمر - نخيل - ثمرات - وكلها كلمات تتناسب مع وصف الجنة التي أعدها الله للذين من عليهم بالمغفرة .

ومن طرائق التعبير كذلك والتي دلت على ثقافته العربية بالإضافة إلى ثقافته الإسلامية ما أورده الكاتب من أسماء لفحول الشعراء في العصر الجاهلي وما تلاه من عصور مثل علقمة الفحل في العصر الجاهلي ، وعدي بن زيد ، ومن شعراء عصره أبو نواس ، وجاء ذكرهم في معرض أنهم لو علموا حقائق ما أعد الله للمؤمنين من النعيم لأقلعوا عن غيهم .

كما كان من طرائق تعبيره أنه استخدم السجع الذي جاء بمثابة جرس موسيقي أعطي للرسالة رونقاً وبهاءً وإن جاء في بعض الأحيان متكلفاً متصنعاً . هذا بالإضافة إلى بعض الألفاظ الغريبة التي لا يستطيع فهمها مثل القوازيز، خربصيص خمصيص - جعافر - موم إلى غير ذلك من

١- سورة محمد : من الآية ١٥ .

الكلمات التي يندر استعمالها ، كما أطال في سرد عبارات غامضة أو ضرب أمثال شارده أو ذكر ما لا يعني إلا العربي القح في ذلك العهد .

استطاع الكاتب في هذه الرسالة أن يوظف خياله توظيفاً رائعاً ، انفرد به انفراداً تاماً ، وبخاصة في هذا الفن النثري ، فلم يسبق إلى هذا الأسلوب الفني الذي يعتمد على الخيال وحسن الفهم ، مما أعطي لها الصبغة الفنية التي خلدها في سجل الفن الأصيل .

والناظر في هذا النص يجد فيه من الوحدة والتمازج ما يبعث على الإعجاب بعقلية هذا الكاتب وموهبته الفذة ، وقدرته الفنية ، التي أسهمت في صياغة هذا الفكر والتعبير عن ذلك الخيال المبهر ، في قالب فني رائع علا سجعه وانسجم نظمه وكثرت غرائبه وأوحت كلماته ، وسلمت معانيه .

كما تمثل الرسالة تقدم النثرورقيه في العصر العباسي ومدى ما وصل إليه من ازدهار وتطور على يد هذا الكاتب الذي تأثر بعلمه وهذا بعض الكتاب العالمين في بعض أعمالهم الإبداعية مثل تأثر " دانته " في الكوميديا الإلهية .